« كان الكونت تولستوى ينعم بالثروة وبشهرة العبقرية ٠٠ ولكنه زهد فى هذا كله حين أيقن أن السعادة فى التعبد وأن عبادة الله هى حب الناس ومساعدة الفقير ٠ »

صراع تولستوى

بقلم الدكتور لطفى فطام

من يحج الى البيت الذى فيه عاش ومات ليون تولستوى (١٨٢٨ـ١٩١٠) يرى قصرا ضخما فى وسط غابة من أشجار البلوط والصفصاف على بعد ٢٢٠ كيلومترا جنوب موسكو ، فى مكان اسمه « أياسنيا ـ بوليانا » ٠ ويسترعى نظر الزائر شجرة بلوط ضخمة أمام البيت تسمى شجرة الفقراء ، اذ حولها مقعد دائرى كان يجلس عليه الفقراء فى انتظار تولستوى ٠ ولقد تعلق بالفرع الرئيسى لهذه الشجرة ناقوس حديدى يدقه أى قادم فى أية ساعة من ساعات النهار أو الليل ليخرج تولستوى لاستقباله ٠ لم يدق هذا الناقوس منذ نصف قرن ، وقد اندمج نصفه فى ساق الشجرة لنموها وتضخمها ٠

أما فى داخل البيت فان أهم ما يسترعى نظر الزائر هو البذخ المفرط فى الصالونات من المرايا واللوحات الضخمة المذهبة والسجاجيد النفيسة من ناحية ٠٠ ومن ناحية أخرى البساطة الزاهدة التى تتجلى فى حجرة تولستوى الخاصة:

جدران طليت بالجير وباحداها مسمار علق به قميص نوم وعباءة · وفي أحد الأركان سرير نحاسي صغير يعلوه رف للكتب ، وفوقه صورة « تاتيانا » أحب بناته اليه ، وصورة « عذراء الفاتيكان » بريشة ميكل آنجلو ، تمثل صفاء الوجه الذى كان يبحث عنه طيلة حياته ·· وبجوار السرير خوان صغير عليه زجاجة مياه معدنية وبجوارها شمعة ومفكرته التى كان يدون فيها مذكراته وآخر كتاب كان يقرأ فيه وهو « الاخوة كارامازوف » ، آخر قصة كتبها دستويفسكى الذى كان يعجب به بالرغم من كرهه له ، ولا يزال هذا الكتاب مفتوحا حتى الان على الصفحة الخامسة والستين بعد الثلاثمائة من المجلد الأول التى توقف عندها تولستوى عن القراءة ·

فى تلك الحجرة الفقيرة كان يقضى الكونت تولستوى ليله · أما نهاره فكان يقضيه فى مكتبه الذى يشبه المغارة ، فهو صومعة تحت سطح الارض يبلغ سمك جدرانها مترا ، وسقفها منخفض كقبة تطبق على الانفاس ·· وكان يجلس الى منضدة الكتابة على كرسى معوج قليل الارتفاع ، أراده هكذا كى تكون عينيه فى مستوى المنضدة التى يكتب عليها ·· ذلك لانه كان ضعيف النظر ويأبى عليه غروره أن يضع منظارا فوق عينيه ·

الصراع النفسى :

كان الغرور داءه الرئيسى وقد تجلى ذلك حين تراءى ذات يوم فى المرآة وأبصر ما عليه من قبح ودمامة ، فدفعه الغرور الى أن يؤثر الموت على الحياة ·· ولكن شعورا أقرب ما يكون الى الكبرياء نجاه من شر هذا الغرور · فوطد العزم على أن يعوض قبحه بالتفوق على الجميع ليكون أعلى الناس شأنا وأقواهم وأشدهم بأسا ·· وأخذ يبرر تخلفه عن اخوته فى الدراسة بجامعة « كازان » بأنه من جنس أسمى وأرفع من هؤلاء « الصمامين » ·

أما عن كسب قلوب الحسان فقد أقنع نفسه بقدرته على ذلك ·· فأخذ دون جدوى ـ يصفف شعره على طريقة الشاعر الانجليزى « بيرون » واذ يخيب ظنه يحلق رأسه بالموسى فى اليوم التالى ، فلا يوفق ·· ثم يشترى أعدادا ضخمة من الصدرات الانيقة ولكنه كان يرى أخاه الوسيم « سيرج » يغزو قلوب الحسان فيعانى مرارة الالم ·· ثم تمتد يده الى مكتبة القصر التى تضم ٢٢ ألف مجلد فى خمس عشرة لغة ، فيقرأ « ديكنز وأفلاطون وايجين سو » وغيرهم ·· ويسرف فى التدخين ويخرج لصيد الدب وهو عارى الصدر بالرغم من تساقط الجليد

لكى يستثير اعجاب الجيران ·· ويعود فى المساء ليعزف موسيقى « موزار » على البيانو ثم يلعب الورق مع العجوز « تاتيانا » التى تكفلته بعد فقد أمه وهو لم يتجاوز العامين من عمره ·· وكان حين يخلو لنفسه لينـــام يجهش بالبكاء فى حالة عصبية ·

كان يبلغ عندئذ الثالثة والعشرين من عمره ·· واذ سئم حياته هذه التحق بالجيش وطلب السفر الى « سباستوبول » ·· وعندئذ أخذ يملأ فراغه بالكتابة ·· فأخذ يدون مذكراته فى سن الخامسة والعشرين ونشر منهـــا المجلد الاول بعنوان « الطفولة » دون ذكر اسمه ، وقرأ هذا الكتاب دستويفسكى وهو سجين فى سيبيريا وأعجب بذلك المؤلف المجهول ··

ثم نشر المجلد الثانى بعنوان « قصص من سباستوبول » كتبهـــا وهو فى جبهة القتال وسرعان ما قفز تولستوى الى مرتبة كبار الادباء وفتحت له المجلات والندوات أبوابها واحتضنه « تورجينيف » أكبر أدباء روسيا فى ذلك الوقت ، ولكنه لم يلبث أن اختلف معه ، اذ سرعان ما زهد تولستوى فى هذا النجـــاح وأخذ يحتقر ما يسميه « أدب المترفين » فعاد الى قصره فى « ايا سنيا ـ بوليانا » وارتدى ملابس الفلاح سعيا لخلق العدالة والمساواة بين الطبقات وقد أيقـــن « انه لا يمكن أن تتحقق العدالة فى ظل نظام الرق والعبودية · »

الصراع الاجتماعى :

كان بالقصر وحده أربعون خادما يتصرف فى حياتهم كما يشاء ·· فأقدم على عتق جميع العبيد التابعين له وعلى توزيع أراضيه وممتلكاته بينهم ·· ولكن الفلاحين فى دهشتهم وجهلهم تحفظوا من هذا التصرف ورفضوا هذا العرض ·· فصمم على أن يزيل جهلهم هذا بأن يتكفل بتعليمهم وتثقيفهم ·· فأسس المدارس فى عزبته بل وتحت سقف بيته وقام بدور المدرس والمربى ولكن ذهبت جهوده هباء ·· فعدل عن مشروعاته وقام بجولة فى أوربا وعاد الى قصره وقد سئم كل شىء حتى نفسه ·

ثم تعرف الى ابنة طبيب فى الكرملين ، صديقة لاحدى شقيقاته ، كانت تدعى « سوفى أندريفنا » ويسمونها « سونيا » وكانت لم تتجاوز الســـابعة عشرة من عمرها على حين أنه بلغ الرابعة والثلاثين · لكنه هام بها حبا وتزوج بها ·

الصراع فى الانتاج :

كان تولستوى حين يقدم على التأليف يحشد كل امكانياته الذهنيـــــة ويخضع ساعات نهاره وليله للعمل الذى يعده · وفى ظل السعادة الجارفة التى شعر بها بعد الزواج ، انكب على التأليف الضخم فأقدم على كتـــابة « الحرب والسلام » فكرس لهذا الكتاب سبع سنوات كاملة يفحص فيها المراجـــع ويقرأ الكثير عن نابليون وبطرس الاكبر ، ويحرك الجيوش وأفواج الجمـــاهير فى مخيلته ويقضى الليل فى دراسة الخطط الحربية ويتفهم الغامض من المؤامرات ليتقن كتابة قصته وكأنه يحيا مائة حياة فى حياة واحدة · فيجد فى هذا العمل الشاق سعادة لا توصف مما يضفى عليه مســحة من الجمال توحى بالحب الى زوجته سونيا التى كانت تخشى الحياة معه فى البداية ·

أخذت تحاول جاهدة أن تتعلق بحبه ، وتفانت فى ذلك الحب فرغبت فى أن تندمج فى « حياته الحقيقية » ألا وهى التأليف فعكفت على نسخ مخطوطاته ولكنه كان يصدها عن ذلك ، فى غلظة أحيانا ، ليردها الى المطبخ وتربية أطفاله اذ كان ينجب طفلا فى كل عام حتى بلغ عددهم ثلاثة عشر طفلا · وسريعا ما تحول حبه لزوجته الى هيام بالتأليف فأخـــذ يغلق على نفسه مكتبه السفلى الذى يشبه المغارة وبدأت زوجته تضيق بحياة الوحدة المريرة فكتبت فى مذكراتهـا تقول : « ان قلبى يتوق الى الحب · أود أن يغازلنى أى انسان ·· بل أود أن أهيـــم بحب كرسى من الكراسى ! » ـ أما تولستوى فقد استأثر كتاب «الحب والسلام» بقبله ولبه ، ذلك العمل الذى يتفجر من قلبه كأمواج المحيط ليخرج فى لوحـــة بشرية ضخمة لم يسبق أن حققها انسان منذ هوميروس حين كتب « الالياذة »·

وانه الآن فى ذروة نشاطه وأوج عبقريته ، فأصبح أعظم أدباء عصره ، يقارنه الناس بالشاعر الروائى « بوشكين » (١٧٩٩ـ١٨٣٧) ·

ولكن حدث له حادث غريب ·· ففى ذات يوم توجه الى بلدة « أرزاماس » بالقرب من المدينة المسماة الآن « جوركى » ، لقضاء بعض أعماله ·· فشـــعر وهو نائم بيد حديدية تطبق على عنقه وبصوت من العالم الآخر يهتف فى أذنه : « أنا هنا ·· أنا هنا ! » فاستيقظ منزعجا يبعث صيحات الذعر وهو يتلعثـم : « الموت ·· لقد رأيته ·· انه هنا ! » وبعد قليل هدأ واســـتراح ولكن فكرة الموت لم تفارقه ·· وأخذت سونيا تقلق وتضطرب وهى لا تدرى أى عـــذاب يضنيه ويؤرقه ·· انه يقضى ليله فى قراءة شوبنهور وشكسبير ، بالرغم من عدم

حبه لهذا الادب ، ويقرأ جوجول وبوشكين اللذين يعجب بهما أشد الاعجاب ·· ولكى يقرأ كزينوفون وأفلاطون وهوميروس فى مؤلفاتهم الاصـــلية ، أخذ يتعلم اللغة اليونانية وهكذا أتقن تولستوى ١٣ لغة أجنبية ·

ولم يهدأ له بال رغم ما كان فيه من مجد ، واذ شعر بأن لا مكان له فى هذا العالم البائس المزيف ، أخذ يزداد احساسا بالخجل والعار من البـــذخ الذى يحيط به ، وينقم على حياته فيسميها حياة البطالة وحيـاة المتعطلين بالوراثة ، ومن ثم تضاعف شعوره بالالم والعذاب بسبب مصير الفلاحين ، فكان يقـــول لنفسه : « أنت تحيا فى الكذب والضلال ! » · فأقبل بهمته يخـــدم المسكين ويساعد المحتاج ويضع يده على المحراث ليعين أرملا على حرث حقلهـا ، وينشىء أفرانا فى القرى ليييسر العيش للمعوزين ويدخل الى حانوت الاسكاف ليساعده فى صنع الاحذية أو اصلاحها · ثم ألف للفلاحين كتابا لتعلم مبادىء القراءة ·

وفى ذات ليلة دق ناقوس حديقته فخرج ليجد جاره « بيبكوف » عارى الرأس تحت الجليد المتساقط ، قد جاء ليستنجد به وليقف الى جانبه فى محنته · فلقد هربت زوجته وأخذت معها كفنا أبيض وتركت له هذه الكلمـــة : « أنت قاتل سفاح ·· عش سعيدا ان استطاع السفاحون أن يعرفوا السعادة ·· اذهب الى محطة ايسنسكى لترى جثتى فوق قضبان السكة الحديد · »

توجه تولستوى وجاره وسط العاصفة الى تلك المحطة فوجدا الجثمان ممزقا وملقى نصف عار فى قاعة الانتظار ·· فعاد تولستوى الى بيته منزعجا مضطربا وأخذ يحاول عبثا أن يدفع عن مخيلته هذا المنظر ، الى أن رنت فى أذنه ذات ليلة عبارة كانت تقرؤها احدى بناته بصوت مرتفع من كتاب لبوشكين : « فى ليلة العيد تستقبل المدينة فرحة أفواجا متلاحقة من الزائرين · »

فما لبث أن تبدد الحزن وانتفى العذاب من قلبه وأسكرته نشوة الحياة وأخذت هـــذه العبارة تتردد بأعذب الأنغام فى نفسه وتبلورت شخصية آنا ستيانوفا فى ذاكرته وأصبحت أنا كارنينا عنوان القصـــة الجديدة التى يزمع كتابتها ·

بدأت تعتمل فى نفسه هذه المغامرة الجديدة لمدة خمس سنوات ، تحلق به فى أجواء العالم الوحيد الذى يمكن أن يعيش فيه سعيدا ، عالم الانتاج والتأليف ·· فتفجر سروره وهو معتكف للكتابة لمدة شهرين كاملين بعـــد بداية « أنا كارنينا » ··

ولكن برزت أحداث خطيرة ، فالقحط يزأر ويبتلع الناس فى سمادا ، فاذا بتولستوى يترك كل شىء ويهجر قصته قبل أن تكتمل ويرحل الى تلك المنطقة لينظم أعمال النجدة والمعونة ٠

وما أن عاد الى « أيا سنيا ـ بوليانا » حتى ماتت فجأة صغرى بناته ثم لحقت بها العجوز تاتيانا ٠٠ وهنا برز من جديد الشبح الذى ظهر له فى « أرزاماس » يهدده ويؤرقه ٠٠ وحين نشرت مجلة « الرسالة الروسية » بداية قصته وذاع نجاحها ، لم يشأ أن يسمع عنها شيئا ٠٠ بل أخذ يتألم بسبب ما ينجم عن النجاح من شعور بالكبرياء ، فيصيح قائلا : « ما أبشع مهنة الادب ، انها مفسدة الروح ٠ »

صراع التدين :

وفجأة فى وسط هذا الشعور بالفناء وتهديد شبح الموت ، تجلى له مخرج أمين ، ذلك هو الله ، ذلك الاله الذى فقد الايمان به منذ الطفولة ، أخذ الآن يتوسل اليه متعبدا بروح التائب الذى يود أن يكفر عن ذنوبه ٠٠ ظل لمدة عامين يواظب على الصلاة ويمارس جميع الطقوس الدينية طبقا للعقيدة الارثوذكسية ٠

وفى ذات صباح ، وهو واقف فى الكنيسة ، شعر بأنه يوشك أن يختنق ، ولا يقوى على الكلام ٠٠ ثم أخذ عقله يشرد وتفكيره يتعثر ٠٠ فامتنع عن الذهاب الى الكنيسة وصمم على أن يجعل بينه وبينها سدا وصدا وعزم على أن يتمسك بالله فقط ٠٠ وأخذ يبحث عن حب الله وعبادته بين الفقراء وأنقياء القلب والودعاء البسطاء ٠٠ هناك وجد الهه ٠٠ وعندئذ بدأ ينادى بدين جديد ولخص تعاليم هذا الدين فى ست وصايا : « لا تغضب بل سالم جميع الناس ، لا تخضع للشهوات الجنسية ، لا تحلف أبدا ، لا تقاوم الشر بالعنف ، لا تكن عدوا لأحد ، عليك بحب الله وبحب جارك مثل نفسك ٠ »

هذا هو دين تولستوى الذى صمم على أن يعيش فيه ، مكافحا أمر كفاح قام به انسان مع نفسه ٠٠

لقد كبر أبناؤه فاضطرت الاسرة الى مغادرة « أيا سينا ـ بوليانا » بعد اقامة دامت ١٨ سنة لتعيش فى موسكو سنة ١٨٨٠ ٠٠ ولما كان تولستوى يجتاز موجة عارمة من التصوف فقد عزم على أن يبتعد عن الاحياء الأنيقة فى

موسكو مؤثرا العيش بين الفقراء والكادحين ، فاشترى منزلا قديما مبنيـــا بالاخشاب فى احدى الضواحى الشعبية ..

الصراع مع زوجته :

كان يحيا مع زوجته نهبا لمأساة دفينة دامت عشرين عاما .. ولقد آن لهذه المأساة أن تنفجر بصورة بغيضة يكاد يغفل المؤرخون تعليل سببها على وجـــه الدقة ..

ولكن من يود أن يلمس حقيقة المأساة عليه أن يذهب الى بيت تولستوى فى موسكو .. فمن الخارج منظره بسيط وضيع ، أما فى الداخل فيتـــألق بذخ الأشراف الأثرياء : منزل رحيب الجنبات ، متعـــدد الردهات تتحلى جـــدرانه بالطنافس الرائعة ويزخر بالرياش والفراش الفاخر من فراء وأبسطة ثمينة بين ألوان القرمز والذهب .. وما أن يعبر الزائر هذه القاعة الفاخرة حتى يصل الى باب صغير ينفرج عن غرفة صغيرة هى حانوت اسكاف فقير ، يقضى فيهـــا تولستوى وقته متمنطقا بمنطقة من الجلد ، جالسا أمام منضدة صغيرة عليهـــا أدوات صناعة الاحذية ، ليصلح أحذية خدم البيت والفقراء .

وهنا يتكشف سر الخلاف وتتجسم المأساة .. فزوجته الكونتيسة تولستوى التى تزهو بلقبها وثرائها ، وتفخر بعبقرية زوجها ومجده ، وتفكر فى مستقبل بناتها ، أليس من حقها أن تثور فى جنون حين تدخل الى هذه الغرفة الحقيرة لترى زوجها قابعا بجوار شمعة وفمه ملىء بالمسامير الرفيعة وهو يدق نعـــل حذاء أحد الخدم ؟ ــ وكيف لا ينفجر هذا الغضب حين تدعو الى دارها أعيان المدينة وشرفاءها فترى زوجها يخرج أمامهم من غرفته حافى القـــدمين مرتديا قميص الفلاحين وعليه منطقة الاسكاف ليعبر الصالون الفاخر كأحد المتسولين.

وتولستوى نفسه الذى يود أن يحيا منكرا ذاته ، فى فقر البساطة وزهد التقشف وقمع الجسد ، ألا يثور ساخطا على حيـــاة البذخ والتنعم ؟ وكيف لا يمقت المرأة التى تفرض عليه هذه الحياة التى لا يطيقها ؟

أصبح كل منهما يبغض الآخر .. وحاول عشرات المرات أن يهجر هذه الحياة ولكن زوجته كانت تناشده البقاء لاجل أولاده فيشعر بضعف يمنعه من تنفيـــذ رغبته ..

التصـــوف المطلق :

أخذ حبه للتقشف يزداد يوما فيوما ·· فلقد عزف تماما عن شرب النبيذ والتدخين وأكل اللحوم ·· فبينما يقوم الخدم بملابسهم الرسمية وقفـــازاتهم البيضاء بتقديم أشهى الاطعمة على المائدة وأطيب أنواع النبيذ العتيق ، يحضرون له خبزا أسود وطبقا من القمح المغلى ·· ولو حدث أن تفوه أحد أمامه باشارة عن مؤلفاته يحمر وجهه خجلا لانه لم يجد بعد الشجاعة الكافية لاعـــلان تنازله عن حقوق التأليف لصالح الشعب ·· وتدون سونيا صيحات ســـــخطها فى مذكراتها : « ها هو ذا يرتدى قميص الفلاحين ويمثل دور المتقشف ·· يفكر دائما فى شعبه ، يريد أن يضحى فى سبيله بكل شىء : بمؤلفاته ، بزوجتـــــه وأولاده ، انه بشعبه هذا ينفرنى من كل شىء !·· »

أخذ تولستوى يزهد فى عبقريته لانها تسمح لكبريائه بالتألق ·· فعكف على تأليف كتب مبسطة لتعليم الفلاحين القراءة ·· ولا يمكن لسونيا أن تغفر له هذا الانتحار الذهنى ·· فبلغت المأساة أوجها سنة ١٨٨٢ حين كانا يجتازان فترة دقيقة فى حياة الازواج : فعمره ٥٤ عاما وهى ٣٧ عاما ·· انه قوى البنية يطلق لحية كالنهر الدافق ، وهى ما تزال فاتنة بالرغـــم من ارهاق الامومة ومرارة الألم ونكبات الحداد ·· وأبشع ما فى الأمر أنهما على بغضهما بعضهما بعضا يظلان مرتبطين بصلة الجسد التى يخجل منها كلاهما ··

وفى ذات مساء حاولت الهرب لتلقى بنفسها تحت عجلات القطار كما فعلت « أنا ستبانوفنا » وفى ليلة أخرى حاولت أن تلقى بنفسها فى المستنقع المجاور للقصر ··

ولقد أرهقت هذه المآسى المتكررة ذلك المكافح العجوز الى حد جعله يوشك أن يستسلم ويرضى بحياة النفاق التى تريدها له سونيا ·· وعندئذ تدخـــل القـــدر ··

نداء القـــدر :

ففى احدى الامسيات طرق باب بيته فى موسكو شاب وسيم من الاشراف يدعى « تشيركوف » ، فى الثلاثين من عمره ، ضابط فى الحرس الامبراطـــورى وابن جنرال فى الجيش واسع الثراء ·· فلقد قرأ هذا الضابط الشاب مؤلفات تولستوى فتغيرت حياته ، واستقال من وظيفته ونبذ طبقة الاشراف التى كان

ينتمى اليها وهجر أهله وترك ممتلكاته وجاء الى سيده وأســـــتاذه فكان أول تلميذ له ..

واذا بتولستوى الرقيق القلب الذى طالما تعلق بأولاده وظل متصلا بزوجته وبيته يرى هذا المتقشف المتطرف يبرز أمامه كالملاك ذى السهم النارى ويطالبه بأن يتبع المبادىء التى ينادى بها اتباعا دقيقا ، وأن يتجرع كأس عقيدته حتى الثمالة ..

أقام « تشيركوف » فى « أياسينا ـ بوليانا » وحول القصر الى مجتمع بدائى يضم الوافدين من التلاميذ المقتنعين بمبادئه من جميـع البلاد ومختلف الطبقات غير أن معظمهم كان من المتسولين والأفاكين يعيشون جميعا فى شركة ومساواة.

وعبثا حاولت سونيا مقاومة هذا الجنون ، بل ان تولستوى نفسه لم يعد سيدا فى داره تلك اذ أصبح « تشيركوف » هو الذى يسير أمر أستاذه وأمور الآخـــرين ..

وبعد كفاح مرير مع سونيا لم ير تولستوى بدا من أن يجرد نفســـه من ممتلكاته ويزهد تماما فى عبقريته ومؤلفاته فيهب جزءا من حقوقه فى التأليف الى الشعب مضيعا بهذا العمل ثراء زوجته وأبنائه .

لم يعد تولستوى يقوى على العيش فى وسط أسرته .. انه يئن ساخطا : « أود هجر بيت المجانين هذا ، أود نبذ حياة الخجل والفضيحة هـــذه ، أود الرحيل . »

انه يحلم بغاندى الذى يحيا حياة عقيدته فى الطرقات العـــامة وفى سجون الهنـــد .

ولكن أنظار العالم أجمع تتجه كلها نحو تولستوى .. فلم يعد أعظم كاتب فى ذلك العصر فحسب ، بل رسول ديانة جديدة ، ديانة غريبة غامضـــة قد تتكشف عن مستقبل ملتهب وأصبح مجده يطبق الآفاق ويسمونه قيصر روسيا الثانى ، واذ خشيت الكنيسة تأثير ســـلطانه أصدرت ضـــده قرار الحرمان سنة ١٩٠٠ ..

أما مأساته مع زوجته فهى تجرى سريعا الى نهايتها المحتومة .

ففى صباح أحد الايام ، وهو فى أياسنيا ـ بوليانا ، أحضر ســـاعى البريد خطابا من طالب مجهول يقول فيه لتولستوى : « أيها الأخ ، أناشدك بحب الله أن تنبذ لقبك وممتلكاتك وترحل . »

كان هذا بمثابة تدعيم لنداء القدر ، فقد أتت الساعة ·· نهض تولستوى فى الثالثة صباحا والجليد يتساقط فى أواخر اكتوبر وهجر بيته وهو فى الثانية والثمانين من عمره ·· خرج وسط العاصفة عارى الرأس وتوجه الى دير « أوبتينا » وطرق الباب قائلا : « أيها الاخ ، ان ليون تولستوى يطلب الاذن بالدخول » ، فاستقبله رئيس الدير فاتحا ذراعيه لهذا المحروم من الكنيسة ، فارتمى تولستوى بين أحضانه باكيا ·· ولكنه لا يستطيع البقاء فى الدير ·· فحين علمت سونيا بنبأ اختفائه حاولت الانتحار بالقاء نفسها فى المستنقع ·· وخرج جميع من فى « أيا سنيا ـ بوليانا » يبحث عنه ، بل والعالم أجمع يتعقب أخباره والصحافة تقتفى ساعة بساعة آثار رسول الديانة الجديدة الذى ذهب الى الحج المجهول بحثا عن الحقيقة المطلقة ·

وفى ذات مساء ، فى محطة السكة الحديد بمدينة « أستوبوفو » سقط على الارض فكان سقوطه خاتمة المطاف ، كما حدث من قبل لانا ستيبانوفنا ·· فتلقاه ناظر المحطة فى حجرة نومه الى أن نقل الى بيته وهناك وقفت ابنته المفضلة ألكسندرا بجوار فراشه اذ رفض أن تدخل سونيا حجرته فى احتضاره ·· انه يختنق من التهاب فى الرئتين وارتفعت حرارته الى ٤٠ درجة ودلف الناس الى الحجرة يبكون ويصلون لاجله فينحيهم عنه قائلا : « أليس فى العالم سوى ليون تولستوى ؟ انه يوجد ملايين من الفقراء يموتون بؤسا فهؤلاء هم الجديرون بالاهتمام · »

وفى اليوم السادس من نوفمبر سنة ١٩١٠ بدأ النزع الاخير فنادى ابنه « سيرج » ولكنه لم يستطع الكلام ·· وكان آخر لفظ منه أمكن تمييزه هو **الحقيقة ··**

* * *

وفى الساعة السادسة من صباح يوم ٧ نوفمبر أسلم الروح فارتمت عليه سونيا صائحة : « سامحنى ! » ـ مات تولستوى فخيم على العالم سكون رهيب وكتب جوركى الذى لم يكن يحبه : « أنا الآن يتيم وأذرف دموع الحزن · »

ودفن تولستوى بدون حفل دينى فوق ربوة تعلوها الاعشاب بالقرب من قصره حسب رغبته ·· هناك حيث دفن أخوه « نيكولنكا » فى صباه عودا أخضر حفر عليه هذه العبارة : « هذا هو السر الذى سيحمل الناس على السعادة بأن يحبوا بعضهم بعضا · »